

أحسن الغزل

كان العرف الشائع بين نقاد الغزل في الشعر العربي إلى عهد قريب أنّ أحسن الغزل هو ما حسن فيه وصف المحبوب وأربى على الغاية في إسباغ المحاسن عليه. فمن جعل محبوبه عصمة في الجمال لا يمسّه نقص ولا يلحق به عيب فهو أغزل ممن وصفه فظهر من وصفه إياه أنه معيب في بعض نواحي خلقه وخلقه، ومن قال إن محبوبه كالشمس أغزل ممن قال فيه إنه كالبدر أو كوكب من كواكب الليل التي تبلغ مبلغ البدر والشمس في الإشراق والجمال.

وهذا كما يرى من النظر اليسير خلط ذريع بين أمور كثيرة: خلط بين الاستحسان والعشق وهما مختلفان.

لأن الاستحسان قد يأتي من العاشق وغير العاشق، ولا يلزم من عشق الرجل امرأة من النساء أنها في نظره أجمل من كل امرأة رآها، فربما عرف عيوبها وعرف محاسن غيرها فأحبها بعيوبها ولم يحبب صاحبة المحاسن المفضلة في عينيه.

وخلط بين هوى الشخصية وهوى الصفات. فمن شروط العشق الأولى أنه يميز للعاشق شخصية واحدة بين جميع الشخصيات التى يراها. فهو يحل «المشخصات» لفرد من أفراد الجنس فى محل أعلى وأرفع من الصفات التى تعم بحسنها كل من اتصف بها، ويرجع هذا التمييز إلى أسباب كثيرة لا تقتصر على استحسان الجمال: منها تقارب العواطف، ومنها المصادفة التى تجمع بين العاشقين فى أحوال مهيأة للتعلق والالتفات ثم للألفة والهيام، ومنها إحساس النقص فى العاشق وما يتممه من مزايا المعشوق، ومنها قدرة المعشوق على إعزاز مكانته فى قلب العاشق وإن لم تكن له فتنة جمال.

ثم هو خلط بين خصائص المعشوق وخصائص العاشق... فالجمال شىء يخص المعشوق ويدل عليه. ولا يلزم من تفوق المعشوق فى الصفات المحبوبة أن يتفوق العاشق فى الصفات المحبة وأن يكون كلامه مثلاً لكلام المحبين. فمن المحقق إن أن أحسن الغزل ليس هو أحسن الثناء على المحبوب، وقد يكون غزلاً جيداً - أو شعراً غرامياً جيداً - وفيه هجو وإقذاع.

ثم ينبغي أن نذكر هنا أن العشق اضطرار وليس باختيار،
فالعاشق لا يلزم معشوقه لأنه يختار ملازمته بل لأنه لا يستطيع
فراقه ولو أساء إليه. فإذا رأى منه السيئات وبقي على عشقه
فذلك أدل على قوة العشق من البقاء مع الاستحسان والاختيار.
إن لا فضل ولا قوة عشق لمن يبقى على الشيء لأنه مستحسن
لديه، وقد يكون فضل العاشق وقوة عشقه في عرفانه السيئات
والسخط عليها ثم حبها مع هذا وذاك. فيكون هجاؤه أحياناً أدل
على عشقه من ثنائه، لأنه العشق الذي يغلبه على ما يريد.
فالمدرسة التي تجعل الثناء والاستحسان مقياس الإجابة
في الغزل تجهل الغزل الجيد وتخلط بين جميع تلك الأمور.

وهناك مدرسة أخرى تجعل «الرقّة» والمبالغة فيها مقياساً
للغزل والمتغزلين.
فالذي يجعل قلبه موطئاً لقدم محبوبه أغزل ممن يجعل
خده - ليس إلا - موطئاً لقدمه.
والذي يبكي الليل والنهار أغزل ممن يبكي الليل ويكفكف
دمعه بالنهار.

والذى يتذلل ويتضرع أغزل من الذى يثور ويتبرم ، والذى يشبه المرأة فى كلامه معها هو على مذهبهم أصلح الرجال لعشق النساء!

وهذا الرأى من سخف الضعف والاضمحلال الذى ابتلى به الشرقيون فى زمن من الأزمان.

فالعشق أقوى غريزة تختلج بها البنية الإنسانية، وهو لم يخلق للذة العاشقين ونعيمهما حتى يكون كل ما فيه ليناً ونعمة ورقة، ولكنه خلق لبقاء النوع واستدامة الحياة، فربما ذهب العاشقان معاً ضحية له فى بعض الأحيان، وربما غلب فيه الجراح والسورة فطغى جانب الغضب على جانب الرضى، وجارت القسوة على الرقة، وظهر المحبان فى مظهر أشبه بصراع الأعداء منه بملاطفة الأوداء، لأن كليهما مسوق مغلول ضعيف الحيلة فى النجاء.

وإنما نعرف أحسن الغزل حين نعرف مبعث الغزل من طبيعة الأحياء.

فالغزل قبل كل شىء خاصة من خواص الذكور فى الإنسان وفى جميع الأحياء.

لأن الذكور هى التى تبتدئ الغزل وتتعارك فى طلب الإناث، وكل ما تصنعه الأنثى من دور طبيعى فى الغزل أن تتعرض له وتلبيه وتستجيب إليه.

ومتى بلغ الذكر سن التغزل فأية ذلك أن يغلظ صوته ويخشوشن وتشتد فيه دوافع السطوة والطراد.

فالصفات التى تجعل الغزل صالحاً للإصغاء إليه والوقوع فى موقعه هى الصفات التى تجعل الرجولة صالحة لما تستبقي إليه، وهى صفات ليس فيها تأنث ولا ضراعة ولا خفوت.

وقد عرضنا لهذا البحث فى مقال من مقالات كتابنا «الفصول» وعقبنا على رأى دارون فقلنا إنه تلمس «علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعسر عليه الوصول إلى مصدرها وقال فى كتابه أصل الإنسان: «لو سأل سائل ما بال بعض الألحان والأوزان يرتاح إليه الإنسان وأنواع من الحيوان؟ لما كان فى وسعنا أن نجيب عن ذلك إلا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها إلى بعض المذوقات والمشمومات».

ثم قلنا إننا «إذا تلمسنا علة الطرب أولاً من جهة التأثير بقوة الصوت وجدنا الجواب عن ذلك السؤال سهلاً قريباً وأمكننا أن

نجيب من يسألنا: لماذا يؤثر أعمق الأصوات ارتجاعاً وتمويداً وأكثرها تنوعاً وتجويداً؟ فنقول له: لأنه ترجمان العاطفة الشديدة والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة، ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت ألفاظاً فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقاً عارماً ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة وأبلغهم إلى نفسها كلاماً وأغلبهم على طبعها سلطاناً...».

واستطردنا من ذلك إلى أن «العشق في طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلاسة، وإنما هو شواظ لاذع يلتف دخانه بناره، ويلتهب شوقاً إلى وقوده، فإن أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم بهناءة نفسه ويغتنب بالراحة من سورة طبعه، وإن لم يصب وقوداً كان نقمة لا تطاق. وأى رقة في قول المجنون:

كأن فؤادى فى مخالب طائر

إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

كأن فجاج الأرض حلقة خاتم

على فما تزداد طولاً ولا عرضاً

«إن قلب السامع لينقبض، وإن صدره ليحرج لهذا الوصف، ومع هذا أى شعر أبرع من هذا الشعر وأى شاعر أطبع وأعشق من المجنون؟»

«وليس العشق الصادق حين يشب أواره وتتأزم حلقاته بالعاطفة التى يود صاحبها دوامها ويستريح إلى مناجاتها. كلا وإنما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضى لساعتها. ويقوم فى نفسه عراك لا تهدأ ثأرتة ولا يهنأ بالغلبة فيه، لأنه هو الغالب وهو المغلوب، وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً ويغوث من ركوب هذا النزاع: نزاع الحيرة التى يقول فيها المجنون:

فوالله ما فى القرب لى منك راحة
ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيلة
وأى مرام أو خطار أخاطر

«وكان كاتيلوس^(١) الشاعر الرومانى يدعو الآلهة قائلاً:
أيتها الآلهة؛ إن كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية،

(١) Catullus شاعر لاتينى ولد فى فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء العشق فى اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجميل وكثير عندنا.

فبحق براءتى عليك إلا ما نظرت إلى عذابى ، ورثيت لما بى ،
ومسحت عنى هذا الوباء الماحق ، والبلاء اللاحق ، وهذه اللوعة
التي تسربت رعدتها فى عروقى فنفت الهناءة عن قلبى» .
وهى رعدة عروة التي يقول فيها :

وإنى لتعرونى لذكراك رعدة
لها بين جلدى والعظام دبيب
ووهلة المجنون التي يصفها بقوله :
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فإن طاوعته نفسه فى نزاعه ذاك وإلا حنق عليها ، وذهب
به الحب إلى كره ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذى حرمه
نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ، وفرق بينه وبين
نفسه ، فيحب ويكره فى آن . وربما تمنى لحبيبه الموت لعل
اليأس منه أن يشفيه .
كما قال جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى
من نحو بلدتها ناع فينعاهـا

كيما أقول فراق لا لقاء له
وتضمّر النفس يأساً ثم يسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها
«وكان كاتيوّلس يقول: «إنى لا أكره وأحب. تسألنى
كيف ذلك؟ من يدري! ولكنى أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة
برحائه».

وكذلك كان يقول المجنون:

فيا رب إن صيرت ليلى هى المنى
فرزنى بعينيهما كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلى وأهلها
فإنى بليلى قد لقيت الدواهيها

«وليس فى نعت الحب بالداهية شىء من الرقة والدمائة،
ولكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من
ذوق لغة، أو مشرب قوم، أو وحدة زمن. ولكنهما اجتمعا على
عاطفة إنسانية صادقة – بل اتفق عليها كل شاعر عالج من
العشق ما عالجه هذان الشعاران.

«وأحياناً يثوب العاشق إلى نفسه فيبدو له كأنه مختار في شغفه وسلوته، وكأن الأمر لا يعنى غيره، فإن شاء سدر في الحب وإن شاء صدف، وإن شاء مضى مع قلبه وإن شاء وقف. فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته، وأن الأمر فوق يده ووراء مشيئته، وهذا الذى يصفه جميل إن يقول:

ألا قاتل الله الهوى كيف قادنى

كما قيد مغلول اليدين أسير

«وهنا يخيل إليه أو إلى الناس أن قوة فوق قوة الإنسان تقهره على مشيئته، وأن رقية من رقى السحر أو طائفاً من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته. كما خيل إلى ذلك الشاعر الرومانى حين قال: أيتها الساحرة... لئن جملتك طلاسّمك فى عينى لتعلمن أن الوجد أطول أجلا من الإجلال، وإنى لأهواك ولست بعد إلا محتقراً لك، وإن عد هذا ضرباً من الخبال».

وكما يقول المجنون:

هى السحر إلا أن للسحر رقية وإنى لا ألقى لها الدهر راقيا
أو كما يقول جميل:

يقولون مسحور يجن بذكرها

فأقسم ما بى من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر إلا ما به ، وإلا فهل للعشق وصف
أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر؟ هل هو إلا جنون يعتقل
العقل ويهزأ بالحذر ويطير مع الأهواء ، فإن ثقلت عليه النهى
أزاحها عن عاتقه ومضى لطيته؟ ألا يعرف العاشق ما يوبقه
ولكنه لا يحيد عنه؟ ويبصر ما يشفيه وهو يأبى أن يذوقه؟
«... ومن محاسن جميل وإخوانه من الشعراء الغزليين
أمانتهم فى الإعراب عن النفس والبث بالعاطفة. انظر إلى قوله:

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها

يلذان فى الدنيا ويغتبطان

وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا

أسيران للأعداء مرتهانان

«فهكذا ظن جميل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق
ولا يرى أين هى ، فيحسب أنه هو الشقى وحده وأن العشاق كلهم
سعداء ، والحقيقة أن العشق لا يخلو من الشقاء أبداً ، ولو خلا
منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به البطالون والمجان...».

وأول ما يستخلص من هذه المشاهدات وهذه الحقائق أن الغزل الحسن شيء لا يشترط فيه استحسان شمائل المحبوب والمبالغة في إطرائها، وأنه كذلك شيء لا يشترط فيه الترقق والشكوى وضراعة الخطاب، وإنما هو التعبير الصادق عن الحب، كما خلقه الله في نفوس الأحياء، وهو بهذه المثابة شيء أعظم من حياة الإنسان نفسه لأنه يتناول الغرائز النوعية كلها والطبائع الكونية كلها، ولا يقتصر على فرد من الأفراد في حالة من الحالات. فهو كالبحر اللجى الذى تتيه فيه العقول ويتسع للنقائض ويعج بضروب من المفاجآت ليس لها انتهاء.

هو ظفر حيوى لأنه استيلاء شخصية على شخصية أخرى تنضى إليها وتفتح لها أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها، فهو إذن غبطة وفرح وانتشاء.

وهو تضحية لأنه مطلب نوعى تهمل فيه منافع الفرد ولذاته وأمانيه، فهو إذن يأس وشدة وبلاء.

وهو لذة لأن الطبيعة تحتال على الفرد أحياناً لتوقعه فى حبالها فتريه لذته فيما تقوده إليه من أغراضها، فهو إذن نعيم وطرب وترنيم.

وهو حسرة لأنه يربط مسرات الدنيا كلها بمخلوق واحد
لا ينوب عنه مخلوق آخر، فهو إذن نعمة مهددة بالضياح
والقلق فى كل حين.

وهو عراك ووثام وظفر وتسليم، واختيار وإكراه، وعزة
وذل، وقسوة ورحمة، وخشونة ولين.

وهو كما خلق فى الغرائز جارف عنيف، وكما تعهدته
الحضارة مهذب مصقول، ولا يزال بين الغريزة والصقل قابلا
للوثبة المفاجئة من النقيض إلى النقيض، لا ينقاد للعنان مرة
إلا جذبه مرة أو مرات فكأنه منطلق بغير عنان.

مثل هذا العيلم الزاخر من الحياة النوعية والحياة الفردية
حمق أسخف الحمق أن يحصره المتبطلون من مصطنعى النقد
فى قالب واحد أو هيئة واحدة أو لون لا يتبدل، فمن حصره هذا
الحصر وسامه هذا السوم فأقل ما يقال فيه إنه يلغو بما لا يدريه.
ونحن لا يفوتنا أن نستحضر هذه الحقيقة إلا فاتنا أن نحكم
الحكم الصحيح على كل غزل وكل عاطفة غزلية، وكل علاقة
إنسانية تستند إلى طبائع الأحياء.

فجميل - مثلا - أبطل المبطلين فى عشقه وغزله عند
مدرسة «الاستحسان» أو مدرسة الرقة حين قال:

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى
وفى الغر من أنيابها بالقوادح

لأنه سأل الله تشويه ما هو حسن فى عينى حبيبته
وثغرها وهما أجمل ما يُتمنى له الجمال فى وجه محبوب،
ولأنه تجافى الرقة كلها حين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ
الذى يدعو به العدو على ألد أعدائه.

ولكن هذا البيت مع هذا أدل على عشق جميل من عشر
قصائد غزلية تفيض بالركة والثناء، لأنه دليل على حب برح
به وحار فى الخلاص منه وغلب على مشيئته فيه، وظن أن
البلاء كله من جمال تلك العيون وجمال تلك الثنايا، فلم يبق
له من حيلة إلا أن يسأل الله إتلاف هذا الجمال عسى أن
يطيق بعد ذلك سلوه والراحة من بلواه. أما قبل ذلك فلا حيلة
له ولا طاقة بالسلو والنسيان.

هذا أعمق الحب وأصدق الغزل، ولك أن تقول إنه غزل
صادق من رجل سيئ، أو إنه غزل صادق من رجل طيب فى
سورة اليأس والحيرة، فهذا حق لا غبار عليه.. أما أن يكون
مبطلا فى عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمنية، فذلك من اللغو
الذى لا صدق فيه.

ولك أن تقول إنها أمنية رجل تغلب عليه «الأنانية»
ويلتمس الراحة بما استطاع من وسيلة ولو كان فيها بلاء لمن
يهواه، إلا أنك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمنية لأنه أحب وضاق
ذرعاً بحبه، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من التعلق بالمعشوق
والعجز عن الفكك من إرهاقه، فهي إن شئت «أنانية» ذميمة
صادقة عنه. وهذا هو المرجع فى قياس الشعر وتحقيق
العاطفة، ولا مرجع سواه.
وفى شعر جميل ما ينم على الأنانية لا مرء، كقوله فى
الرائية المشهورة:

فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها
ودامت لنا الدنيا إلى ملتقى الحشر

فهو يتمنى البقاء معها إلى ملتقى الحشر، ولكنه يأبى
عليها الحياة بعده ويسأل الله أن يموتا معاً إذا قضى الله أن
يعجل بموته.

ولكنها «أنانية» لا تخص جميلاً بين العشاق فيما نراه،
فما من عاشق يسره أن يتخيل معشوقته وقد نعمت بعده بحب
غيره، وما فى هذه الأمنية من دليل على قلة الحب وكراهة
المحبوب، بل فيها دلائل على فرط الحب والاستغراق فيه،

ونحسب أن بثينة أرضاها هذا من دعائه فوق ما كان يرضيها
دعاء السلامة لها والنعمة في هوى العشاق بعده، لأنها تحس
ببداهة الأنوثة أنه يسر ببقائها ونعمتها بعد موته لأنه قليل
الغيرة عليها في الحياة وبعد الممات.

وللشعراء العشاق من مدرسة جميل فلتات مستغربة من
هذا القبيل، أو لعلها أغرب جداً في هذا الباب من فلتات
جميل، ولا سيما الفلتات التي أحصوها على تلميذه الأكبر
كثير بن عبد الرحمن.

فقد أصبح كثير أضحوكة الأضحيك بين الشعراء والنقاد،
لأنه قال:

ألا ليتنا يا عز من غير ريب—ة

بغيران نرعى في الخلاء ونعذب^(١)

كلانا به عُرُ فمن يرنا يَقل

على حسنها جربى تعدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله

علينا فما ننفك نرمى ونضرب

(١) العذوب من الدواب: القائم الذي يرفع رأسه ولا يأكل أو يشرب.

وددت وبيت الله أنك بكرة
هجان وإنى مُصعب ثم نهـرب^(١)
نكون بـعيرى ذى غنى فيضيـفنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

وعـيـره نظراؤه حين شاعت هذه الأبيات، فقالوا له:
«ويلك! تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد
والمسخ، فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك؟ لقد أصابها منك
قول الأول «معاداة عاقلة خير من مودة أحمق!».
وصدقوا والله ما من أمنية هي أدعى إلى الضحك والسخرية
من هذه الأمنية التى سألها كثير. ولكن من قال إن كثيراً
لم يكن مضحكاً وسخرة حتى يستغرب منه أن يتمنى هذه
الأمنية، وأن ينظمها فى تلك الأبيات وهو صادق التعبير؟
فقد وصفه بعضهم فقال: «رأيتـه فى الطواف فمن قال لك
إنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبـه!» ووصف بعض عشرائه
حماقته فقال: «إن كثيراً لقيه فسأله: ماذا يقول الناس عنى؟»
فأجابه: إنهم يزعمونك المسيح الدجال... قال كثير: عجباً.
والله إنى لأحس فى عيني بعض الضعف منذ اليوم!

(١) البكرة من الإبل الصغيرة والمصعب الفحل الذى يراح من الركوب.

فمثل هذا الرجل يستغرب منه إذا غلبته العاطفة أن يعبر
عن نفسه فلا تفلت منه أمثال تلك الأبيات، فهذا موضع
الغربة وليس موضعه أنه يصدق فى التعبير عن ذات نفسه
كما صدق فى التعبير عما تمناه.

عاشق زرى المنظر مستحرق العقل ضعيف الحيلة يزاحمه
الناس على محبوبته ويخشى أن يغلبه كل مزاحم عليها لأنه
أجمل منه منظرًا وأقدر على الإغواء والإغراء، ثم تنغصه
الوساوس، وينظر فى وسيلة يأمن بها على صاحبته فيتركها
الناس له، ويتركونه لها، فلا يجد من وسيلة قط غير ابتلاء
عزة بالبلاء الذى يزهد الناس فيها ويقصرها على حبه وولائه
دون غيره، فيبتعد الناس عن عزة وتبتعد هى عنهم ضرورة
لا محيد لها ولا لهم عنها. أمّا أن يبعدهم هو أو يبعدها فقد
علم أنه لا يستطيع ولا يملك من فتنة ولا حيلة تعينه على
ما يريد. فماذا هو صانع؟ أيتركها؟ إنه لا يقوى على تركها...
أيحميها؟ إنه لا يقوى على حمايتها. فلا عجب إذن أن يخطر
له ذلك الخاطر، وأن يتمنى الشئ الوحيد الذى يصون له
محبوبته بمأمن من الغواة والمزاحمين، وهو ما تمناه وصدق
فى تمنيه.

ويخيل إلينا أنَّ كثيراً قد رأى البعيرين الموصوفين رؤية العيان لأنه منظر لا يندر أن يصادفه الناظر مرات حيث عاش كثير، فوقع له أنَّ هذين البعيرين سعيدين حيث يسرحان ولا يطلبهما مالك ولا راع، ولا هما سائلان عن علف وشراب. فتمنى السعادة على هذا المنوال، وشهدها بالعين قبل أن يتمناها فى الخيال.

أتقول إنه سخيـف؟ نعم هو سخيـف لا مرء، ولكنه محب يصدق فى التعبير عن حبه ويدل عليه دلالة لا اصطناع فيها فلا محل للخلط إذن بين سخف القائل وصدق ما قال، ولا محل كذلك لاتهام عاطفته بما كان من رداءة تمنيه، لأنه أحب فنغصه الحب وحيل بينه وبين التماس الراحة من غير هذه الطريق. وها نحن أولاء قد رأينا عشاقاً يتمنون الموت لمن يحبون، وعشاقاً يتمنون التشويه لمن يحبون، وعشاقاً يتمنون الخلاص ممن يحبون، ورأينا أنهم أحبوا وصدقوا التعبير عن الحب وإن عيبت عليهم الأثرة أو الغفلة أو الجفاء، فلا غرابة إذن فى شعر غرامى تعوزه الضراعة والشكاية أو يعوزه الثناء والاستحسان، ولا شرط للغزل الصادق إلا التعبير عن الشعور الذى يختلج فى قلب صاحبه كأننا ما كان رأى فيه وفى خلقه وعقله وأمانيه.